

الحزن والألم في شعر محمد الماغوط

صادق فتحي دهكردي^{١*}، غلاله حسين بناهي^٢

١. أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، فريديس الفارابي

٢. ماجستيرة في الأدب العربي، جامعة كردستان

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٣/١٢/٢٠؛ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٤/٢٢)

ملخص المقال

إنّ الشعر العربي الحديث حافل بالمضامين الحزينة من جراء الأوضاع السياسيّة الاجتماعيّة الأليمة للبلدان العربيّة. قلّمنا نجد شاعراً حديثاً يخلو شعره من مضمون الحزن. محمد الماغوط الشاعر السوري الذائع الصيت من كبار الشعراء في العصر الحديث والذي يحتلّ مكانة مرموقة بين الشعراء المعاصرين. يشتهر الماغوط بـ «أبي الحزن»؛ لأنّ الحزن يشكّل أكثر مضامينه الشعريّة. إنّ شعر الماغوط شعر الحزن والألم، شعر يذهب فيه جفاءً الآمال والأمني والرغبات، فيسوده الفشل واليأس والحزن. هناك أسباب شخصيّة واجتماعيّة كثيرة لها دور في تبلور هذا الحزن في وجود الشاعر بما فيها السجن، الغربة، عدم اهتمام الأسرة والمجتمع به، سيطرة الأجنبي، غفلة سلطات العرب، ضعف الشعوب العربيّة وجهلهم و... . تحاول هذه المقالة أن تعالج ظاهرة الحزن في شعر الماغوط، فتبين أسباب تكوّنه وكيفية تجلّيه وأيضاً المظاهر التي جعلها الماغوط وسيلة لبيانه الحزين. والمنهج المتبع فيها هو المنهج التوصيفي- التحليلي الذي يقوم على استخراج المضامين مع ذكر النماذج ثم تحليلها.

الكلمات الرئيسيّة

الشعر، الماغوط، الحزن، المظاهر، الأسباب.

مقدمة

ولد محمد أحمد عيسى الماغوط، الشاعر والأديب السوري عام ١٩٣٤م في مدينة السلمية التابعة لمحافظة حماة في شمال دمشق. نشأ في عائلة شديدة الفقر. درس بادئ الأمر في الكتّاب ثم انتسب إلى المدرسة الزراعية في السلمية حيث أتم فيها دراسته الإعدادية، انتقل بعدها إلى دمشق ليدرس في الثانوية "خرابو" الزراعية بالفوط، لكنه لم يتم دراسته في الثانوية بسبب فقر أسرته، فتركها وعلى حد تعبيره هرب منها، قائلاً: «وفجأةً أحسستُ أن ليس اختصاصي الحشرات الزراعية، بل الحشرات البشريّة» (صويلح، ٢٠٠٢، ص ١٤). ثم إنّه أراد أن يمتحن مهنة مناسبة فلم يوفق فيها، ومع هذا «فقد كان عصامياً؛ إذ درس على نفسه واستقى معرفته للآداب الغربية من الترجمات العربية لها» (خورشا، ١٣٨١، ص ٢٢٥).

وفي تلك الفترة كان في سوريا وأيضاً في السلمية حزبان كبيران يتنافسان، هما حزب البعث والحزب السوري القومي. قام الماغوط بعد عودته إلى السلمية بالدخول في الحزب السوري القومي، دون أن يقرأ مبادئه. لم يكن انتماء الماغوط إلى هذا الحزب عن منطلقاته السياسيّة بل كان بسبب فقره وحاجته إلى انتماءٍ ما وإحساس الأمان والحماية عن طريق الاتصال بحزبٍ ما، إلا أن انتماءه الحزبي لم يدم طويلاً؛ لأنّه سرعان ما سُجن في عام ١٩٥٥م بسبب عضويته في هذا الحزب. (صويلح، ٢٠٠٢، ص ١٧) وخلف القضبان الحديدية بدأت بوادر موهبته الشعريّة بالتفتّح بإنشاد قصيدة «القتل». تعرّف الماغوط أثناء سجنه على الشاعر «علي أحمد سعيد» الملقّب بـ «أدونيس»، الذي زاره في ما بعد في بيروت. قدّم أدونيس، الماغوط إلى «جماعة الشعر» (صويلح، ٢٠٠٢، ص ٢٥).

ثم أطلق سراح الماغوط بعد تسعة أشهر، وهرب إلى بيروت؛ لأن في تلك الفترة، كانت الوحدة بين مصر وسورية توشك أن تنذر بالخطر له؛ إذ إنه ينتمي إلى حزب ملاحق، وكان الحزب السوري القومي يسعى إلى إعادة الماغوط إلى صفوفه إلا أن الماغوط رفض وقرّر عدم الانتماء إلى حزب سياسي. (القيّم، ٢٠٠٦، ص ١٠٥) كانت بيروت وقتئذٍ، عاصمة الثقافة والصحافة وجنة المنفيين والمطاردين والملاحقين العرب. وفي بيروت تعرّف الماغوط على الشعراء والأدباء المشهورين أمثال: «يوسف الخال»، «بدر شاكر السيّاب» والشاعرة «سنية صالح» التي

غدت في ما بعد زوجته.

عاد الماغوط إلى دمشق بعد أن أصبح اسماً كبيراً، حيث صدرت مجموعته الأولى «حزن في ضوء القمر» عن دار «مجلة الشعر»، في عام ١٩٥٩م. ثم أدخل الماغوط في السجن للمرة الثانية عام ١٩٦١م ومضى في السجن ثلاثة أشهر. (صويلح، ٢٠٠٢، ص ١٧) وبعد خروجه من السجن تزوج من سنية صالح. وفي النهاية اغتاله الموت في دمشق، يوم الاثنين ٣ نيسان ٢٠٠٦م. (القيّم، ٢٠٠٦، ص ١١)

خلفية البحث

من أبرز خصائص الماغوط الشعرية هي سيطرة الحزن والغم على أشعاره، مع هذا لم يتمّ حتى الآن بحث مستقلّ عن دراسة هذه الظاهرة البارزة والمسيطرّة على شعر الشاعر. وتدرس الدراسات الموجودة شعر الماغوط بصورة عامة، وأكثرها تكون رسالات جامعية في مرحلة الماجستير بما فيها الرسالة التي توجّهت إلى دراسة وتحليل الآثار والأعمال الأدبية للماغوط بصورة عامة. (أخلاقي، جامعة لرستان، ١٣٨٨) أو رسالة لدراسة القصّة عند الماغوط وخصائص شعره، (أحمد، جامعة فردوسي مشهد، ١٣٨٨) أو الرسالة التي موضوعها يكون عن قصيدة النثر ومحور بحثها شعر الماغوط. (پرويزي نيا، جامعة تربيت معلّم سبزوار، ١٣٨٨) لذلك فإن الهدف الرئيس لهذه الدراسة هو دراسة هذا الجانب الهام والمؤثّر في شعر الماغوط. والأسئلة التي تُطرح في بداية هذه الدراسة، هي:

١. ما هي العوامل التي سبّبت في إيجاد الحزن والألم في شعر الماغوط؟

٢. من أي عناصر ومظاهر استفاد الماغوط لبيان حزنه وإظهاره؟

هذه الدراسة تبنى على فرضيتين:

١. هناك أسباب وعوامل شخصية واجتماعية كثيرة، لها دور هام في تبلور وإيجاد الحزن والغم في شعر الماغوط، مثل السجن، والغربة، وعدم اهتمام الأسرة والمجتمع به، وسيطرة الأجنبي، وغفلة السلطات العرب و...

٢. لقد استفاد الماغوط في بيان حزنه وإظهاره أكثر ما استفاد من العناصر الموجودة في الطبيعة إضافةً على بعض الفنون الأدبية.

الحياة الأدبية لمحمد الماغوط

يُعتبر محمد الماغوط من الأركان الهامة للشعر العربي الحديث، وهو في عداد أبرز الشعراء الذين فتحوا الآفاق الواسعة أمام القصيدة العربية المعاصرة. اشتهر الشاعر كأحد رواد قصيدة النثر العربية. ديوان «حزن في ضوء القمر» للماغوط (١٩٥٩م) من أولى تجارب قصيدة النثر في شكلها الحديث. (حسن جواد، ٢٠٠٨، ص ٦٠) تكاملت قصيدة النثر في آثاره المؤخّرة أكثر تكاملاً.

يرجع ريادة الماغوط وأهميته في مجال قصيدة النثر إلى الخصائص الفنية والأسلوبية والمضمونية التي ميّزت شعره وتجاربه الشعرية. ومنذ انتشار مجموعته الشعرية «حزن في ضوء القمر»، حدثت معادلات حديثة في الشعر العربي المعاصر بصورة مدوّنة لأول مرة، وهذه كانت بدايةً جديةً لفن قصيدة النثر العربية وعالمها الموضوعائي.

فتح الماغوط آفاقاً فسيحة أمام الأجيال المستقبلية من الشعراء العرب، لتخصيب التجارب وتغيير الميراث العربي القديم، وحذّره من الركود وقبول السكون وتقليد القدماء في المعاني والأساليب، وساقهم إلى الإبداع وخلق الأشكال الشعرية الجديدة وفتح الحدود الجديدة للشعر والأدب أمام أنفسهم.

قلماً نجد شاعراً أظهر أحاسيسه النفسية والقلبية، صادقاً خالصاً مثلما نجد الماغوط. اعترف بعض الشعراء بصداقة كلام الماغوط وخلوصه. كان الشاعر الكبير «نزار القبّاني» يقول: «أنت (محمد) أصدق شعراء جيلنا، قولاً... أصدق كلّ الشعراء المعاصرين. ألمي الآن هو أن أكتب بنفس البصيرة والنفس الطيبة والرؤية الطموحية التي أنت كنت تكتب في الخمسينات. كان حزنك وتشاؤمك أصيلاً وخالصاً بينما كان تفاؤلنا للعالم خدعة» (لؤي، ٢٠٠٢، ص ٤٦٧).

يقول الشاعر في وصف نفسه:

أنا رجلٌ غريبٌ لي نهدانٌ من المطر/ وفي عينيّ البلديتين/ أربعة شعوبٍ

جريحة،/ تبحثُ عن موتاهما (الماغوط، ١٩٨١، ص ٧١)

وفي الحقيقة بدأت حياته الأدبية في الخمسينات وكان من رواد «مجلة الشعر» في إنشاد «قصيدة النثر» (بزون، ١٩٩٦، ص ٢٢١). ترك الماغوط آثاراً قيّمة في مجالات مختلفة. له مجموعات شعرية: «حزن في ضوء القمر» (١٩٥٩م)، «غرفة بملايين الجدران» (١٩٦١م)، و«الفرح ليس مهنتي» (١٩٧٠م).

من آثاره الأخرى الشهيرة، هي رواية «الأرجوحة» (١٩٧٤م)، «سأخون وطني» (١٩٨٧م) وهو يشتمل على مجموعة مقالاته، «سياف الزهور»، «شرق عدن غرب الله» و«البدوي الأحمر». كتب الماغوط ماعدا الشعر، سيناريويين اثنين، عدّة مسرحيات وعدداً كثيراً من المسلسلات التلفزيونية. تعدّ مسرحيات «المهرج»، «العصفور الأحذب»، «كأسك يا وطن»، «الغربة»، و«خارج السرب» من أهمّ مسرحيات الماغوط. (اليسوعي، ١٩٩٦، ص١١٥٩) هذه الآثار مجال لتبيين أفكاره. ويشكل نقد أنظمة العالم العربي الدكتاتورية والحزبية الواحدة موضوع أكثر آثاره.

شعر الماغوط

هناك آثار عديدة للماغوط في النظم والنثر ومن بينها آثاره الشعرية أكثر امتيازاً من آثاره الأخرى. هو يُعتبر من رواد قصيدة النثر العربية وأكثرهم نشاطاً. شعر الماغوط بسيط ومفهوم وليس فيه تعقيد خاص يجعل القارئ في مأزق يتحداه. من الممكن أن تكون أشعاره كلام أيّ إنسان متألم ومظلوم قد ذاق طعم الأسر والتشرد. إن إقبال القراء العرب إلى نظمه ونثره البسيطين والصادقين والمملوءين بالنقد المرّ والفكاهة والسخرية السوداء، كثيراً إلى حدّ نستطيع أن نجد كثيراً من مجموعاته الشعرية في السجون.

معاني الماغوط الشعرية ناضجة وغنية كأسلوبه. تحتوي أشعاره المعاني الوسيعة والمتنوعة بما فيها الأمل، اليأس، الفرح، الغضب، الفرار، الخوف و... لكن المضمون الذي يسيطر على كل هذه المعاني هو «الحنن». من الممكن أن ندرك «الحنن» في أشعاره بكل أبعاده وصوره المختلفة؛ الحزن الوسيط الذي يُظهر نفسه كلّ مرة بمضمون جديد وصوره جديدة وكما يقول: «الحنن ملكي» (صويلح، ٢٠٠٢، ص٥٠). يُظهر الماغوط في كثير من أشعاره حزنه بسبب فقدان ما كان له في الماضي وبسبب الظروف الصعبة والظلم والاستبداد الذي كان قد أحاط به وسيطر على مجتمعه وجميع العالم العربي. يقول الماغوط عن الشعر والشاعر: «لكي تكون شاعراً عظيماً في أيّ بلدٍ عربيّ، يجب أن تكون صادقاً، ولكي تكون صادقاً، يجب أن تكون حرّاً، ولكي تكون حرّاً يجب أن تعيش، ولكي تعيش يجب أن تحرس» (اليسوعي، ١٩٩٦، ص١١٥٩). «لغة الماغوط الشعرية لغة منثورة مطلقاً، ولا يسعى أبداً أن يستخدم الوزن أو القافية أو أيّ نوعٍ من المحسنات البديعية الأخرى تكلفاً. إنما الشاعر يفكر بالمضمون ويسعى أن يجد أقصر الطريق للوصول إلى المعنى والمضمون بأنواع المجاز والاستعارة والكناية» (بيدج، ١٣٧٣، ص١٣).

إن الأسلوب السهل الممتنع الذي يتحدثون عنه، يُرى بوضوح في شعر الماغوط. ربما سمعنا هذه المعاني والأقوال في شعر الشعراء الآخرين، وربما في أقوالنا اليومية تكراراً ومراراً، لكن هذه الأقوال عندما تسمع من لسان الماغوط، تكون للمخاطب جديدة وممتعة ومؤثرة في المخاطب. هذا الإحساس الرائع وهذه الجاذبية التي توجد في القارئ حين قراءة أشعار الماغوط تكون نتيجة عبقرية الماغوط، قدرته وذوقه الخاص في اختيار ووضع الألفاظ وخلق التصاویر الرائعة والجميلة والمحسوسة والحيّة من خلال تلك الألفاظ والكلمات. يصوّر الشاعر من خلال ألفاظ شعره مصيره نفسه ومصير أمته الكبيرة ويصوّر بسهولة نوع البشر بكل آلامه، أفراحه، آماله وذكرياته. شعر الماغوط يكون سهلاً بسيطاً، ودون تكلف وتعقيد. أفكاره أفكار اجتماعية ناتجة عن الظروف المسيطرة عليه وعلى بيئته.

إن هاجس الماغوط الأكبر هو الحرية، وأينما يبحث الشاعر عن الحرية قلّمًا يجدها:

ولكن عندما حلمت بالحرية / كانت الحراب / تطوّق عنقي كهالة الصباح

(الماغوط، ١٩٨١، ص ٢٨٢)

عندما يرى الماغوط الحرية في محاصرة الحراب، يبدأ بالطغيان والتمرد بالكلمات ويسعى للوصول إلى هذا المعنى - الحرية - بأظافره وأضراسه وأي وسيلة كانت بين يديه، فأينما يذهب يحمل مع نفسه غضباً وانزعاجاً خفياً: (بيدج، ١٣٧٣، ص ١٥)

أصافح هذا وأودع ذلك / أنظر خلسة إلى الشرفات العالية / إلى الأماكن التي

ستبلغها أظفاري وأسناني / في الثورات المقبلة (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢٣)

الحزن والألم في شعر الماغوط

تعرف الشعر العربي على ظاهرة الحزن جدياً منذ ظهور التجارب الشعرية الحديثة، وهذا كان متزامناً مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين. هناك أسباب عديدة سببت في أن يسلك الشعر العربي في العصر الحديث طريقاً خاصاً، هذه العوامل هي: استبداد وظلم الحكّام العثمانيين، استعمار الدول العربية على يد فرنسا وإنجلترا، الأوضاع الاقتصادية السيئة، إشاعة الأمراض الاجتماعية، الظروف السياسية والاجتماعية الوخيمة في البلدان العربية والأحداث والمصائب التي مرت بهم وخاصةً نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م التي كانت فاجعةً ونكبةً كبيرةً للأمم العربية والعالم الإسلامي، وعلاوة على هذا كانت هناك عوامل

أخرى أهمّها، إحساس الشعراء الإنسانيّة بمحنة الإنسان المعاصر في العصر الحديث وغربته النفسيّة وإحساسه بالضآلة والضياع. حينما يعجز الشاعر عن إيجاد الملائمة بين منطقته الشخصي وواقع العالم الخارجي، يشعر بالضآلة والحيرة ويصاب بالألم والحنن العميقين. يحفل شعر الشعراء المعاصرين بألفاظ الأسي، الكآبة، الخوف، الموت والأمنيّات التي لمّا تتحقّق، (الورقي، ١٩٨٤، ص ٢٥٦) والشاعر يقضي حياته في حسرة الوصول إليها.

إن محمد الماغوط شاعر يُظهر حزنه وهمّه في شعره ويصوّره بصور مختلفة لكنه لن يستسلم له بل يحارب الأوضاع الموجودة ويحاول أن يخرج من الواقع الموجود. يمكننا مشاهدة هذا الحزن بوضوح في ردود فعله الشديدة إزاء هذا الحزن. يعدّ الحزن من أبرز المضامين التي تسيطر على شعر الماغوط وكما يقول الشاعر: «الحنن ملكي» (صويلح، ٢٠٠٢، ص ٥٠). يرى الماغوط «إنّ الحزن شيء يولد مع الإنسان العربي، ويظلّ معلّقاً في عنقه» (صويلح، ٢٠٠٢، ص ٤٥).

عوامل الحزن

يمكن تقسيم عوامل الحزن في أشعار الماغوط إلى قسمين: العوامل الشخصيّة والعوامل الاجتماعيّة.

العوامل الفرديّة

السجن والأسر:

أثر السجن في نفسيّات الماغوط تأثيراً تامّاً، كما هو القائل:

«ففي السجن انهارت كل الأشياء الجميلة أمامي، وسقطت جماليات الحياة ولم يبق أمامي سوى الرعب والفرع فقط لا غير» (صويلح، ٢٠٠٢، ص ١٦). هذه القضية أصبحت بداية سيطرة الحزن والغمّ على وجوده وعلى قلبه، ولهذا يقول: «في السجن كشفت لون الحياة الأسود وأحسست أنّ شيئاً تحطّم في أعماقي غير الأضلاع، شيء أهمّ من العظام، لا يمكن ترميمه على الإطلاق حتّى الآن... كلّ ما قد كتبت أو أكتب، هو محاولة لترميم تلك التجربة المرّة والصعبة» (www.jehat.com).

الغربة والوحدة:

إن الغربة هي من أبرز أسباب الحزن في شعر الماغوط. ترك البعد عن الوطن جرحاً

عميقاً في قلبه، والذي لم يستطع الالتئام عليه أبداً حيث نرى أن أكثر أشعار الماغوط ذات صبغة حزينة. غربة الإنسان الذي ابتعد عن موطنه وأحبائه ويعيش وهو في كآبة شديدة بسبب البعد عنهم. قلماً يوجد شعر للشاعر ليست فيه رائحة من حزن الغربة. وهذا البعد عن الوطن يجعله أن يتغنى بحسرة واشتياق وافر:

ثلاثين عاماً/ لم أرَ عمَّ بلادي مبللاً بالمطر/ وأنا أنفخ راحتي في الزمهرير/
وأغني: موطني... موطني (الماغوط، ١٩٨١، ص٨١٣)

وعلاوة على غربته وبعده عن الأهل والوطن، زاد الانفراد والوحدة من حزنه أيضاً. هو في الغربة بعيداً عن أهله وأسرته ولم يكن له صديق حميم وأنيس مدة طويلة. كانت الوحدة والحرمان قد جعلته متحيراً. يريد الشاعر في شعره الخلاص من هذه الوحدة والضيق والحيرة، وهو تواق إلى العودة إلى وطنه المأمول أي «الغابة» لكنه يراها بعيدة مستحيلة:

مخدول أنا لا أهل ولا حبيبة/ أتسكع كالضباب المتلاشي/ كمدينة تحترق في
الليل/ والحنين يوسع منكبي الهزيلين/ كالرياح الجميلة، والغبار الأعمى/ فالطريق
طويلة/ والغابة تبعد كالرمح (الماغوط، ١٩٨١، ص٥٧)

عدم حنان الأسرة:

غرس عدم رافة وحنان والد الماغوط وعدم اهتمامه لابنه، بذر الحزن في قلبه وكان ذلك بسبب البؤس وشدة فقرهم. يصور الماغوط فقره الذي يكون عاملاً لحزنه، وكذلك يصور فقر طبقة وسيدة من مجتمعه:

وكان أبي، لا يحبني كثيراً، يضربني على قفائي كالجارية/ ويشتمني في السوق/
وبين المنازل المتسلخة كأيدي الفقراء (الماغوط، ١٩٨١، ص٤٥)

العوامل الاجتماعية

عدم اهتمام المجتمع به:

يعاني الماغوط علاوة على عدم حنان الأب، من عدم محبة وعدم إشفاق المجتمع ومن حوله له أيضاً. الماغوط حزين؛ لأنه يرى أن الآخرين لا يهتمون به ويتردونه، لهذا يرى الطبيعة والمطر والأزهار، أصدقاءه ومحبيه الحقيقيين فقط:

ولكم طردوني من حارات كثيرة/ أنا وأشعاري وقمصاني الفاقعة اللون/ غداً
يحن إليّ الأفتحوان/ والمطر المتراكم بين الصخور/ والصنوبرة التي في دارنا/

ستفتقني الغرفات المسنّة/ وهي تثنُّ في الصباح الباكر/ حيث القطعان الذاهبة
إلى المروج والتلال/ تحنُّ إلى عينيّ الزرقاوين (الماغوط، ١٩٨١، ص ٣٧)
ظلم الأجنبي وسيطرتهم:

كان الماغوط يتألم ويعاني من الظلم الذي يقترفه الأجنبي في حق شعبه. هو يحسُّ الرائحة
العفنة للفساد وللضلالة والانحطاط من خلال ظواهر الحضارة الخادعة التي أعطاهم لهم
الأجنبي، وعندما يرى أنّ الأجنبي قد نهبوا عزّتهم، هويّتهم، قيمهم وأصالتهم وأعطوهم
عوضاً لها بعض الأشياء السخيفة والمخدعة، ينشد محزوناً:

لقد أعطونا الساعات وأخذوا الزمن/ أعطونا الأحذية وأخذوا الطرقات/ أعطونا
البرلمانات وأخذوا الحرية/ أعطونا العطر والخواتم وأخذوا الحب/ أعطونا الأراجيح
وأخذوا الأعياد/ أعطونا الحليب المحقّف وأخذوا الطفولة/ أعطونا السماد الكيماوي
وأخذوا الربيع/ أعطونا الجوامع والكنائس وأخذوا الإيمان/ أعطونا الحراس والأقفال
وأخذوا الأمان (الماغوط، د.ت)

غفلة الحكام العرب وتساهلهم:

لا يفكر الماغوط في مواطنيه السوريين فقط وليسوا هم هاجسه الوحيد. يفكر الشاعر في كل
الأمة العربيّة أينما كانت، في أيّة نقطة من العالم وفي أيّ بلاد، فيعاني من آلامهم وعنائهم.
إن قضية فلسطين تكون للماغوط هدفاً، وموضوعاً، وأيضاً سبيلاً للتمرد والثورة ووسيلةً للنقد
والهجاء. حينما يتحدث الشاعر عن فشل العرب في فلسطين، يغضب ويثور لأنّه يرى الحكّام
العرب يخضعون للأجنبي ويركعون لهم فتحولوا مراعي لأعدائهم، بينما الأجنبي وأعداؤهم
يظلمون شعبهم، لهذا يخاطبهم الماغوط طعناً وتمسخرًا:

أيّها العرب، يا جبلاً من الطحين واللذّة/ يا حقول الرصاص الأعمى/ تريدون
قصيدةً عن فلسطين/ عن الفتح والدماء! (الماغوط، ١٩٨١، ص ٧٠)
ضعف الأمة وجهلهم:

يعاني ويتألم الماغوط من أجل مظالم ومعاناة ترتكب في حق الأمة العربيّة من قبل الأجنبي
والسلطات الداخلية، في حين أنّهم لا يسعون لنجاتهم ولا يقظون عن نوم غفلتهم وجهلهم،
ولهذا يحاول الشاعر أن يبعث روح الثورة في ضمير مواطنيه لكنه يعتقد أنّ هذا لا يحصل
على يد إنسان أرضي، بل لابد من شخص ذي قوّة ماورائيّة يقدر على هذا ويستطيع أن ينقذ

شعبه والماغوط يبحث عن هذا المنجي قائلاً:

أيها العلماء والفتيّنون/ أعطوني بطاقة سفر إلى السماء/ فأنا موفدٌ من قبل
بلادي الحزينة.../ كل ما أريده هو الوصول/ بأقصى سرعةٍ إلى السماء/ لأضع
السوط في قبضة الله/ لعلّه يحرضنا على الثورة (الماغوط، ١٩٨١، ص٢٩٥)

تجليات الحزن في شعر الماغوط

هناك موضوعات عديدة في شعر الماغوط تحتوي على الحزن والألم. ظهرت هذه الموضوعات بصورة ردود الفعل العاطفية. هذه المظاهر العاطفية تكون مجالات تهيئ الأرضية للماغوط كي يبين ويظهر حزنه الداخلي في إطارها ويبدأ بخلق أدبي. هذه الموضوعات هي:

الحنين إلى الماضي

من أهم وأبرز مظاهر الحزن في شعر الماغوط، هو الاغتراب والحنين إلى الماضي وإلى وطنه حيث نرى الشاعر يظهر هذا الإحساس العاطفي بصور مختلفة في شعره. إن العامل أهم الذي قد أوجد هذا الإحساس هو البعد عن وطنه، أسرته وأصدقائه. يذكر الماغوط في شعره ذكرياته مع أسرته وأصدقائه فيرى الغيوم حزينة أيضاً، الغيوم التي تأتي إليه من جانب الوطن ومعها ذكريات الماضي وأسرته:

قصتها تبدأ الليلة/ أو صباح غد/ حيث الغيوم الشتائية الحزينة/ تحمل لي رائحة
أهلي وسريري/ والسهرات المضيئة/ بين أشجار الصنوبر (الماغوط، ١٩٨١، ص٥٣)

إن الغربة والوحدة سببتا في أن يصور الماغوط السحب المارة في السماء كمنقذ من جانب الوطن تحيي روحه. والشاعر وحيدٌ ولا ملجأ له ولا أنيس فيشتاق إلى الوطن ويحن إليه:
أظنّها من الوطن/ هذه السحابة المقبلة كعنين مسيحتين،/ ... لا امرأة لي ولا
عقيدة/ لا مقهى ولا شتاء (الماغوط، ١٩٨١، ص٢٢)

شغلت ذكريات الماضي وأيام الطفولة ذهن الماغوط دائماً. يعاني الشاعر من العصر والظروف التي يعيش فيها وكذلك الأحداث التي مرّت به، ولذا يبحث عن مأمن فيلجأ إلى ذكريات طفولته. ذكريات طفولته تتحداه أيضاً. فأحياناً يكون ذكر بؤس وحرمان أيام طفولته كشبح شوم يتبعه، وحينما يذكر أعباه ولعوبته الطفولية يعطيه السكينة والهدوء. بينما نراه عندما يذكر أمه من خلال أمواج ذكريات الماضي، يسبّب في سكنته ويعدّ ملجأً ذهنياً له في

حين معاناته وأحزانه:

مدّي ذراعيك يا أمي/ أيتها العجوزُ البعيدةُ ذات القميص الرمادي/ دعيني أمس
حزامك المصدّف/ وأنشج بين الثديين العجوزين/ لأمس طفولتي وكأبتي/ الدمعُ يتساقط/
وفؤادي يختنق كأجراسٍ من الدم/ فالطفولة تتبغني كالشج (الماغوط، ١٩٨١، ص٥٧)

قد حرّم حزنُ الماغوط النوم عليه وجعل كلّ حياته سوداءً وانتظاراً. في هذا الحزن والكآبة
العسيرة والصّعبة يأمل العودة إلى طفولته والألعاب والضحكات الحلوة لتلك الأيام التي كان
يضحك فيها على شجرة الكرز من صميم فؤاده، وبعيداً عن كلّ همّ. هو يحنّ إلى صندله
المعلّق في عريشة شجرة العنب الخلّابة كي ينسى هذا الحزن الثقيل:

فأنا أسهر كثيراً يا أبي/ أنا لا أنام.../ حياتي، سوداءٌ وعبوديةٌ وانتظار/ فأعطني
طفولتي.../ وضحكاتي القديمة على شجرة الكرز/ وصندلي المعلّق في عريشة العنب
(الماغوط، ١٩٨١، ص٣٥)

إنّ الأيام التي يعيش فيها الماغوط لم تعد تفوح منها رائحة اللطافة والقراية والمحبة. لم
تعد الشمس تلك الشمس الحنونة، والسماء تلك السماء الزرقاء والسخية في الماضي. تكون
الأيام والواقع الراهن تخالف رغبات الشاعر وآماله. هو يتضايق لتلك اللحظات الماضية
السادجة، لكن مملوءة بالصفاء والمحبة:

لقد كانت الشمسُ/ أكثر استدارةً ونعومةً في الأيام الخوالي/ والسماء الزرقاء/
تتسلّل من النوافذ والكوى العتيقة/ كشرانق من الحرير/ يوم كنّا نأكلُ ونضاجُ
ونموّتُ بحريةً تحت النجوم/ يوم كان تاريخنا/ دماً وقاراتٍ مفروشة بالجنث
والمصاحف (الماغوط، ١٩٨١، ص٤٣)

ويتحدّث الشاعر أحياناً عن فقر حياته الماضية ويذكر صعوبات تلك الأيام؛ يبدو أنّ
الدّل في الزقاق يكون قسماً من الذكريات الحلوة ولكن القصيرة من أيام طفولته. استفاد
الماغوط من التشبيهات والمجازات والاستعارات الجميلة ليصوّر فقره وبؤسه. تكون كلماته في
بيان قصّته البؤسيّة بسيطة ومفهومة:

سامحيني أنا فقيرٌ يا جميلة/ حياتي حيرٌ ومغلقاتٌ وليل بلا نجوم/ شبابي باردٌ
كالوحد/ عتيقٌ كالطفولة.../ كنتُ مهرجاً.../ أبيع البطالة والتّأوبَ أمام الدكاكين/
أعبُ الدّل/ وأكلُ الخبز في الطريق (الماغوط، ١٩٨١، ص٤٤)

الحسرة

يتحسر الماغوط أحياناً لضياع القيم الماضية بكلام حزين، ويتحدث عن الوفاة ونجاة الماضي وأصالته، وعدم أصالة وعبثية الأوضاع الراهنة:

كالذئاب في المواسم القاحلة/ كئنا ننبتُ في كل مكان/ نحبّ المطر/ ونعبدُ
الخريف.../ كئنا نؤمنُ بأنّ الجبال زائلة/ والبحار زائلة/ والحضارات زائلة/ أمّا
الحبّ فباق.../ وفجأة: افترقنا/ هي تحبّ الأرائك الطويلة/ وأنا أحبّ السفن
الطويلة/ هي تعشق الهمس والتنهدات في المقاهي/ وأنا أعشق القفز والصراخ في
الشوارع (الماغوط، ١٩٨١، ص٣٠٨)

ويتذكّر ماضي وطنه الرائع واللامع الذي ليست له علامة حالياً، ويتأسف لفقدانه قائلاً:

تحت سمائك الصافية/ أمضي باكياً يا وطني/ أين السفن المعبأة بالتبغ والسيوف...
/ تحت أظفاري العطرية/ يقبعُ مجدك الطاعن في السن (الماغوط، ١٩٨١، ص١٨)

يكون الماغوط شاعراً مرهف الإحساس، فلذلك يعدّبه ويؤذيه الأوضاع السائدة في بلاده وظروف عصره حالياً فيعاني منها. حيناً يأمل أن يكون مكان عبد من العبيد ولو كان في الظاهر غير مستحسن ومحترماً، لكن له فراغاً وارتياح البال وروحه هادئة ومرتاحة؛ لأن قلبه ونفسه خاليان عن الحبّ والإحساس. يتحسر الماغوط لعدم وجود هذه الحالة له، فهو كئيبٌ وحزينٌ:

آه كم أودُّ أن أكون عبداً حقيقياً/ بلا حبّ ولا وطن/ لي ضفيرة في مؤخرة الرأس/
وأقراط لامعة في أذني/ أعدو وراء القوافل/ وأسرج الجياد في الليالي الممطرة/ وعلى
جلدي الأسود العاري/ يقطر دهن الإوز الأحمر (الماغوط، ١٩٨١، ص٥٤)

يتحسر الشاعر ويتأسف؛ لأنّه رغم كل تلك الفشلات والحقارات التي تفرض على الشعوب العربية، ليس هناك بطل ليرجع من ميدان القتال مع الأعداء، منتصراً فيستقبله بياقة من الورود. وإنما يرى بطلاً منهزماً ومتعباً ومهموماً يرجع صفر اليدين دون أن يحصل على الانتصار والفتح، فيقول يائساً ساخراً:

عاد البارحة ذلك البطل الرقيق الشفتين/ ترافقه الريح والمدافع الحزينة/ ومهمازه
الطويل يلمع كخنجرين عارين/ أعطوه شيخاً أو ساقطة/ أعطوه هذه النجوم والرمال
اليهودية (الماغوط، ١٩٨١، ص٧١)

عندما يرى الماغوط أن المحتلّين قد غصبوا منهم كلّ قيم وجماليات شعبه وبلاده، وأبادوها وأعطوهم عوضاً لها، الأشياء المفيدة والجميلة ظاهراً ولكن الخالية والعاثية باطناً، وخذعوهم وجعلوا هويّتهم وأصالتهم تذهب أدراج الرّيح، لهذا يغنّي حزيناً هكذا:

أعطونا الأحذية وأخذوا الطرقات/ أعطونا البرلمانات وأخذوا الحرية/ أعطونا الأراجيح وأخذوا الأعياد/ أعطونا الحراس والأقفال وأخذوا الأمان/ أعطونا الثوار وأخذوا الثورة (الماغوط، د.ت)

اليأس وخيبة الأمل

تعب الماغوط وحزن من الظروف التي تحيط به وهو يبحث عن طريق ووسيلة للفرار عن تلك الظروف. لقد تعب وأبكاها الانتظار بلا نتيجة والتطلّع إلى غدٍ غامضٍ وغير معلوم. هو يئس من الوصول إلى المدينة الفاضلة التي كان يأملها دائماً:

دموعي زرقاء/ من كثرة ما نظرتُ إلى السماء وبكيتُ/ دموعي صفراء/ من طول ما حلمتُ بالسنابل الذهبية/ وبكيتُ (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢٤١)

إنّ اليأس وخيبة الأمل الذي يكون مولود الحزن والشجن، لقد أحاط بوجود الماغوط. هذا الشعور باليأس قويٌّ فيه إلى حدّ جفّف فيه بوارق الأمل، وكلُّ الأشياء التي تستطيع أن تعطي له الفرح والأمل، فقدت لونها إثر هذا اليأس. فيرى السماء فارغة وخالية عن الأمل من جراء هذا اليأس والقنوط فيبحث عن كوخ على سفوح الألام حتى يقضي هناك عزله ووحده وينتظر الموت:

يا سماء الحبر الجرداء/ أما من غيمةٍ عابرةٍ؟/ أما من عززالٍ صغيرٍ على سفوح الألم؟.../ لا المرأة ولا الحرية/ لا الشرف ولا المال/ يزيل هذا اليأس من قلبي/ دعيني أحتضر فوق الجبال/ دعيني أرفرفُ كالنسر بين الأقدام (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢١٤)

ونتيجةً لهذا اليأس يرى أماله مختتمةً وميتةً، ويريد من النسّاجين أن ينسجوا لآماله كفنّاً واسعاً:

أيّها النسّاجون/ أريدُ كفنّاً واسعاً لأحلامي (الماغوط، ٢٠٠٦، ص ٥٣)

إن حزن الماغوط ويأسه قد يكون وسيعاً وعميقاً، بحيث يرى كلّ شيء مُظلماً وغامضاً، ولا يتصوّر لنفسه أيّ غدٍ ومستقبلٍ واضحٍ ومضيء. يتذكّر الشاعر وطنه وتشرّده والاستعمار

الذي سبب في غربته وتشردّه وقد هدم أرضه وبلاده، ويتذكّر بلاده التي فقدت جمالياتها وروعيتها وبهجتها، فخربت وما بقيت منها سوى ذكريات، وليس له بيت ومنزل إلا التشرد:

لا نجوم أمامي / كنت أودّ أن أكتب شيئاً / عن الاستعمار والتسكع / عن بلادي
التي تسير كالريح نحو الورا / ومن عيونها الزرق / تتساقط الذكريات والثياب
المهلهة / ولكنني لا أستطيع (الماغوط، ١٩٨١، ص ٤٨)

إن الابتعاد عن الوطن والإقامة في الغربية يسبب في أن يودّع الماغوط كل شيء فيطلب أن يشنقوه حتى يموت موتاً جميلاً:

وداعاً أيّتها الصفحات، أيّها الليل / أيّتها الشبايك الأرجوانية / انصبوا مشنقتي
عالية عند الغروب / عندما يكون قلبي هادئاً كالحمامة... / جميلاً كوردة زرقاء
على رابية (الماغوط، ١٩٨١، ص ١٨)

يشد حزن الماغوط أحياناً إلى حد يرى كل شيء أسود ومُظلماً، حتى السماء، كأنه لم يبق أي خرق مضيء وبارقة أمل. هو ينظر إلى وطنه العاري والمهدم الذي لا يوجد فيه إلّا الأجانب والمفترسون والضواري. يرى كل الجماليات والأفراح مختومة، وليس لديه أمل لرؤية الأشياء الجميلة. يلقي الشاعر إلى المخاطب يأسّه وخيبة أمله مع الرعب والشدة والعنف، فيقول:

السماء تظلم / والريح تصفر / والكلاب السوداء / تنهش الكتب الدامية من حقائق
المارة / وأخشى في هذه الأيام المكفهرّة / أن أستيقظ ذات صباح / فلا أجد طائرة على
شجرة / أو زهرة في جديلة / أو صديقاً في مقهى (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢٩١)

عندما يبأس الماغوط ويسيطر على شعره لون اليأس وخيبة الأمل، يختار كلماته متناسبة مع إحساسه. ففي مثل هذه الحالة ينتبه القارئ جيداً إلى إحساسه - اليأس والقنوط - بقراءة شعره. يسبب إحساس يأس الشاعر وإحباطه في أن يفقد كل شيء دفئته وحرارته ولطافته ويكون في نظره بارداً قاسياً، ونتيجةً لهذا الإحساس هي أنه يفكر في الموت فقط:

سأبكي بحرارة / يا بيتي الجميل البارد / سأرنو إلى السقف والبحيرة والسرير /
وأتمس الخزانة والمرأة / والثياب الباردة / سأرتجف وحيداً عند الغروب / والموت
يحملني في عيونه الصافية / ويقذفني كاللغافة فوق البحر (الماغوط، ١٩٨١، ص ٧٦)

يأس الشاعر؛ لأن دافعه الوحيد من إنشاد الشعر كان إيقاظ شعبه من نوم الغفلة، لكنه فشل في تحقيق أهدافه. وأيضاً آلام الغربية ومعاناتها وحزنه بسبب وطنه الممزق، تسوقه إلى ذروة

اليأس والقنوط حتى يرى الموت السبيل الوحيد للنجاة والخلّاص، ويفضّله على كل شيء: هذا.../ في منتصف الجبين/ حيث مئات الكلمات تحتضر/ أريد رصاصه الخلاص/ يا إخوتي/ لقد نسيتُ حتى ملامحك/ أيتها العيون المثيرة للشهوة/ أيها الله.../ أربع قاراتٍ جريحةٍ بين نهديّ/ كنتُ أفكر بأنني سأكتسح العالم/ بعينيّ الزرقاوين ونظراتي الشاعرة (الماغوط، ١٩٨١، ص٧٢)

الخوف والرعب

إن الماغوط يكرّر دائماً بعض الكلمات مثل: الخوف، الرعب والذعر. يقول الشاعر نفسه عن سبب هذا الأمر: «ولدتُ مذعوراً وسأموت مذعوراً. جميع الأمم مقوماتها هي اللغة والتاريخ والدين، ما عدا الأمة العربية فمقوماتها اللغة والتاريخ والدين والخوف وأنا فردٌ في هذه الأمة، وخوفي طبيعيٌّ وطمأنينة الآخرين هي المستغربة» (صويلح، ٢٠٠٢، ص٤٩). أثر السجن والأسر في الماغوط تأثيراً عميقاً وزرع في نفسه خوفاً متنامياً ومستداماً. كان هذا الخوف عميقاً بحيث نجده ظل معلقاً في عنقه حتى بعد إطلاق سراحه من الأسر، وحتى نهاية حياته. وكان شعره مصداقاً لهذا الخوف:

من أورثني هذا الهلع؟/ هذا الدم المذعور كالفهد الجبليّ/ ما أن أرى ورقة رسمية على عتبة/ أو قبعة من فرجة باب/ حتى تصطك عظامي ودموعي ببعضها/ ويفرّ دمي مذعوراً في كل اتجاه/ كأنّ مفرزةً أبديةً من شرطة السلاّات/ تطارده من شريانٍ إلى شريانٍ (الماغوط، ١٩٨١، ص٢٨٤)

لقد سيطر الرعب والخوف على وجود الماغوط بحيث كان يشعر حتى بعد سنوات من تخلصه من السجن بأنّه مطلوب وملاحق. هذا الخوف الذي يفرُّ منه الماغوط ويخاف منه، في رأيه هو مصيبةٌ ومأساةٌ ليست في المجتمع وأسواط القوات العسكرية والوكالات الحكومية فحسب، بل إنّها كانت معهم منذ الولادة وفي الرحم والمهد. فيرى أن المقاومة وإظهار الشجاعة إزاء هذا الخوف الكبير، عمل عبث وبلا جدوى:

آه يا حبيبتني/ عبثاً استردّ شجاعتي وبأسي/ المأساة ليست هنا/ في السوط أو المكتب أو صفارات الإنذار/ إنّها هناك/ في المهد... في الرحم/ فأنا قطعاً/ ما كنتُ مربوطاً إلى رحمي بحبل سرّة/ بل بحبل مشنقة (الماغوط، ١٩٨١، ص٢٨٥)

إن الاستبداد والقمع اللذين سادا مجتمع الماغوط، ثقيلان حتّى إن الشاعر يخاف أن

يُظهر أحاسيسه ويضحك أو حتى يبكي علناً. لقد بينَّ الماغوط وعبرَ عن الاضطهاد والاستبداد المسيطرين على وطنه، وفقدان الحرية والأوضاع والظروف الصعبة للمفكرين في مجتمعه تعبيراً جميلاً:

أضحك في الظلام / أبكي في الظلام / أكتب في الظلام حتى لم أعد أميّز قلمي
من أصابعي (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢٨٤)

الغضب والكراهية

إن «الغضب» هو الآخر من الموضوعات التي نجدُها في شعر الماغوط، والذي ينشأ من الحزن والأسى العميق الجذور في شعره. كانت الآلام والمعاناة والمصائب التي فرضت على الماغوط وشعبه منذ سنوات من قبل الأجانب والقوى الخارجية والداخلية، أثارت في نفسه غضباً مؤثماً. يصور الماغوط في قالب الألفاظ، تعباً أمته القديم وأيضاً تشردهم في صفحات التاريخ:

عشرون عاماً ونحن ندقُّ أبوابك الصلدة / والمطر يتساقطُ على ثيابنا وأطفالنا/
ووجوهنا المختنقة بالسعال الجارح / تبدو حزينة كالوداع صفراء كالسل / ورياح
البراري الموحشة / تنقل نواحنا / إلى الأزقة وباعة الخبز والجواسيس / ونحن نعدو
كالخيول الوحشية على صفحات التاريخ / نبكي ونرتجف (الماغوط، ١٩٨١، ص ١٦)

احتفظ الماغوط بغضب كبير وثابت في صدره، الغضب الذي يمكن أن تحدث عنده ثورة طاغية؛ ثورة وتمرد شعبٍ قد ضاق من ظلم الحكام وقام بالقيام والثورة. إن حزن الماغوط من رؤية المصير الأسود لأُمَّته كبير، بحيث كأنه عدّة المرايا يكون عليها زنجارُ الحزن، تعكس ذلك الظلام والقهر والقمع أضعافاً مضاعفة. في مجتمع الماغوط المظلوم لم يرَ أحدُ النورَ والبهجة والفرح منذ أعوامٍ فينتظروا الموت:

وفي أعماقي أحمل لك ثورة طاغية يا أبي / فيها شعبٌ يناضل بالتراب والحجارة
والظمأ / وعدة مرايا كثيبة / تعكس ليلاً طويلاً وشفاهماً قارسة عمياء / تأكل الحصى
والتين والموت (الماغوط، ١٩٨١، ص ٣٢)

وحيثما يرى فساد وانحراف أمته وضعفهم وقلة همّتهم في تغيير الظروف الفاسدة السائدة، يغضب ويقوم بالانتقام والثورة:

من يعطينا شعباً أبكماً نضربه على قفاه كالبهائم؟ (الماغوط، ١٩٨١، ص ٦٠)
يفرُّ الماغوط من المجتمع كلّهُ، من الصديق والعدو. الأعداء الذين يبذون أصدقاء لكتّهم

مفترسون؛ الذين يرزقون ويفرحون من حزنه وألمه، لذلك يكرههم الماغوط ولم يعد يتحدث عنهم ولا يذكرهم؛ لأنّ الحديث عنهم مؤلم وبلا جدوى. فيسلم قلمه للرياح أو يدفنه كطائر بين الثلوج البيضاء ويرحل ويهجر نفسه من أرض أعدائه وأصدقائه الملوّنة والخدّاعة: وأنتم يا أعدائي وأحابي/ يا من تقرؤونني فوق السروج والصهوات/ يا من تقتاتون على حزني كالكلاب الضارية/ سأقذفُ هذا القلم إلى الريح/ سأدفنه كالطائر/ بين الثلوج البيضاء/ وأمضي على فرسٍ من الحبر/ ولن أعود... (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢١٥)

أسلوب الماغوط للتعبير عن الحزن

رغم أن الحزن والأسى يشاهدان في جميع أشعار الماغوط، لكن أسلوبه في إظهار هذا الحزن بديعٌ ومبتكر، وهذه المضامين هي من الركائز الأساسية لإبداعه الأدبي. أبدى الماغوط حزنه في أشكال مختلفة وصور متنوّعة، بحيث ليست للمخاطب متكررة ومملّة، بل المخاطب بقراءة آية قصيدة من مجموعة قصائده، يجذبه تفنّن الشاعر وقدرته في خلق الصور الجميلة والشاعرية أكثر من قبل. حينما يقرأ المخاطب شعر الماغوط يشعر بأن أمامه لوحة الرسم الجميلة التي قد خلق فيها رسّامٌ حاذقٌ صوراً جميلةً بألوان مختلفة جميلة، أو يقرأ كتاب قصّة يحكي قصّة مؤلّمة من حياة إنسان، وما أعرف هذه القصّة لإنسان متألم! قد عوّل الماغوط في ترسيم حزنه على خلق الصورة والعاطفة. المضامين الجميلة، والكلام السهل البسيط العاطفي وأيضاً الصداقة والخلوص الذي يموج في كلامه، يجذب المخاطب كائناتاً من كان، ومن آية طبقة اجتماعية كان، ويحثّه على مواصلة قراءة شعره. إلى جانب هذه العوامل، تعدّ الاستفادة من المظاهر والأساليب والتكنيكات والفنون الخاصة لإظهار المضامين المحزنة، من الأساليب الفنية الأخرى للماغوط. من أهمّ هذه الأساليب هي الإفادة من المظاهر الطبيعية، الألوان، والألفاظ التي تحمل معاني خاصة.

الطبيعة

يمكن مشاهدة آثار المدرسة الرومانسية وخصائصها واضحة في أشعار الماغوط. التلميحات وخلق الصور الجميلة والنّادرة، استخدام الألوان والمظاهر الخاصة في انتقال المفاهيم، كلّها تعبّر عن تأثر الماغوط بأصول وتعاليم المدرسة الرومانسية وانتهاج نهجها. من أهمّ وأنفع الفنون الأدبية التي تجعل لشعر الشاعر مكانةً خاصةً وتلفت انتباه المخاطب، هي التصوير في

الشعر، التي تعتبر من الفنون الشعرية الخاصة، حيث إن ظهور هذه الميزة في شعر أي شاعر تصريحاً للأهمية والقيمة المعنوية لشعره. وكما يقول الدكتور عدنان قاسم في تعريف الشعر: «إنَّ الشعر، تعبيرٌ عن أحاسيس تجيش بالصدر، ثم تترجم في فنٍّ جميلٍ يحمل تلك الخفقات الصادقة التي تتوَدَّد في النفس نتيجة احتكاك الشاعر مع الحياة والأحياء» (قاسم، ١٩٨٠، ص ٤٨). من جهة أخرى نرى الشعراء الذين يتمتعون بالمدرسة الطبيعية (Naturalism)، قد خصّصوا لأنفسهم أكثر نصيب في هذا المجال. هؤلاء الشعراء يقومون بخلق الصورة عن طريق معرفة نفسيات الطبيعة. إن التصوير في الشعر يحتاج إلى حذاقة ومعرفة كثيرة، بمعنى أن الشاعر إذا لم يتعرّف على خصائص ومميزات الطبيعة تعرفاً كاملاً، لا يمكن له خلق صورة الطبيعة في شعره. وعلاوة على الخصائص الرومانطيقية لشعر الماغوط يمكن لنا أن نجد خصائص في شعره تحظى بالأصول والمضامين الطبيعية. النزعة الطبيعية واستخدام مظاهر الطبيعة في الشعر كالليل، البحر، الغيوم والمطر، لإظهار أحزانه وآلامه، وأيضاً خلق الصورة بهذه المظاهر الطبيعية، قد أعطت لشعر الماغوط خصائص المدرسة الطبيعية.

يبحث الشاعر لإبداء حزنه الذي يحسه في نفسه، عن الشيء الذي يستطيع أن يصوّر حزنه وهمّه وإحساسه للمخاطب والقارئ، كما يكون صادقاً وعميقاً. فيلجأ إلى مظاهر الطبيعة ويجدها أحسن مأمّن وملجأ، للتقليل عن حزنه وللوصول إلى السكون والهدوء وأيضاً لإبداء أحزانه وهمومه كما يكون ملموساً ومتصوّراً. لعلّ الطبيعة وعناصرها تكون أحسن رمز ومظهر لترسيم تمرّد وثورة الماغوط النفسية. إن شعر الماغوط حافل بالتصاوير الخلابة والرائعة التي صورت جميلة بحيث تدخل المخاطب في فضاء الإحساس الحقيقي للشاعر، ويدرك إحساس الشاعر إلى حدّ ما. يطلق الشاعر تخيالاته وآماله الجميلة في أحضان الطبيعة، ويظهر حزنه وإحساسه باستخدام العناصر الملموسة الواضحة جيداً. قلما نجد قصيدة للشاعر لا تكون فيها مظاهر ورموز للطبيعة. ويبيد في كل قصائده التصاوير التي قد ظهرت من خلال التراكيب والاستعارات والتشبيهات الرائعة.

من الخصائص البارزة للمدرسة الرومانسية هي الالتجاء إلى الطبيعة ومناظرها لبيان الحزن والأسى العميق الذي قد أحاط بوجود الشاعر. كما أنّ الشكوى وبيان الألم والحزن وإظهار عاطفة قوية ومؤثرة في ترسيم الآلام والأحزان، من الخصائص الأخرى لهذه المدرسة. هذه الخصائص سببت في أن يُعتبر الماغوط من الشعراء الرومانسيين. يعتقد الرومانسيون أنّ

الأدب بصورة عامة والشعر بصورة خاصة، ليس للتقليد وأخذ النموذج من الحياة والطبيعة، بل يكون للخلق والإيجاد، ووسيلة الخلق ليست العقل والمشاهدة المباشرة، بل يكون الخيال المبتكر الجديد الموجود في عناصر متفرقة في الواقع الراهن أو في ذكريات الماضي وحتى في آمال المستقبل. (مندور، ٢٠٠٦، ص ٦٤)

«والشاعر الرومانسيّ يعتمد على العاطفة الجامحة وعلى الخيال الحرّ الطليق وعلى الخلق والابتكار، والشعر الرومانسيّ يميل إلى الكآبة والأسى والحنين إلى المجهول، والإحساس بالغربة والاعتراب المكاني والزمني من خلال الخيال» (أبو شباب، ١٩٨٨، ص ٢٠٥). عندما يفشل الشاعر الرومانسيّ في ثورته على المجتمع الفاسد الذي يعيش فيه، يفرّ من المجتمع ويعتزل عنه ويعيش في دوامة الوحدة والمشاكل الشخصية، وحينئذٍ يلجأ إلى الطبيعة أو الغابة. و«الغابة» في الواقع هي مكان يحبه الشاعر ويشعر بالسكون والهدوء هناك وباستقرار في أحضان الطبيعة يقلل من غضبه:

أيها المارة/ أخلوا الشوارع من العذارى/ والنساء المحجّبات.../ سأخرج من

بيتي عارياً/ وأعود إلى غابتي (الماغوط، ١٩٨١، ص ٢٣٥)

يصور الماغوط صوراً جميلةً لأحزانه وهمومه النفسية، بحذاقة بالغة، باستخدام مظاهر الطبيعة وعناصرها:

قبورنا معتمة على الراية/ واللبل يتساقط في الوادي/ يسير بين الثلوج والخذادق/

وأبي يعود قتيلاً على جواده الذهبي/ ومن صدره الهزيل/ ينتفض سعال الغابات.../

أيّتها الجبال المكسوة بالثلوج والحجارة/ أيّها النهر الذي يرافق أبي في غربته/

دعوني انطفئ كشعلة أمام الريح/ أتألم كالماء حول السفينة/ فالألم يبسط جناحه

الخائن (الماغوط، ١٩٨١، ص ٥١)

ليس في هذه الأبيات إحساسٌ جيدٌ رائعٌ. عمد الشاعر في هذه الأبيات إلى تلك العناصر الطبيعية التي تنقل حسّ اليأس والحنن تلقائياً. الراية التي عليها قبورٌ معتمّة وفي أطرافها تقع أوديةٌ مظلمةٌ وباردةٌ خيم عليها الليل... الجبال المكسوة بالثلوج والحجارة والنهر الذي إنما يذكر الشاعر ألمه وغربته، مع أنه مملوءٌ بالجمال والروعة والرموز المفرحة للحياة. والعناصر والمظاهر التي استخدمها الماغوط في أشعاره، يمكن أن تكون لها صورةٌ مفرحةٌ ورائعةٌ كثيرة، لكن الماغوط أضاف صوراً مُحزنة لها واستفاد منها لنقل إحساس حزنه.

استخدام المفردات المحزنة والألوان القاتمة

إن الماغوط لتبيين مدى حزنه ووسعته وللتأثير في المخاطب كما يشاء، يمعن النظر في اختيار ألفاظه، حيث نراه عندما يكون مضمون حزنه الاغتراب والتحدث عن ألم الفراق والبعد، يستخدم الكلمات بلحن وإيقاع طريف تُثير الحزن لإثارة أحاسيس المخاطب المرهفة واللطيفة، وحينما يكون المضمون الغضب والكرهية يتغير اللفظ واللحن فجأةً ويدرك القارئ قصد الشاعر تلقائياً:

قصتها تبدأ الليلة/ أو صباح غد/ حيث الغيوم الشتائية الحزينة/ تحمل لي رائحة

أهلي وسريري/ والسهرات المضيتة بين أشجار الصنوبر (الماغوط، ١٩٨١، ص٥٣)

نرى في هذه القصيدة، أن كلمات «الليل»، «الغيوم الشتائية» و«الحزينة»، كلها تظهر الحزن الذي حصل نتيجة البعد عن الوطن. حيث يمكن لكل واحدة من هذه الكلمات أن تنقل إحساس الحزن إلى المخاطب دون وضعها في بناء القصيدة وبين الألفاظ الأخرى للقصيدة.

يقوم الماغوط بالتصوير في قصيدة «المسافر» لإظهار مدى حزنه وحدوده ووسعته:

وعدة مرايا كئيبة/ تعكس ليلاً طويلاً وشفاهاً قارسة عمياء (الماغوط، ١٩٨١، ص٣٣)

وبما أن من جملة خصائص المرأة، هي أن تبدل أي شيء يوضع أمامها، بشيئين اثنين - الشيء نفسه وصورته في المرأة - لذا استفاد الماغوط لإظهار شدة حزنه من تركيب «عدة مرايا كئيبة» بحذاقة فنانة وخاصة. كذلك وصف «المرأة» بصفة «الكئيبة» هو نوع آخر من خلق الصور الفنتانة على يد الماغوط، في إيصال مدى حزنه إلى المخاطب.

وتكون الألوان القاتمة مظهراً للحزن والأسى، ولها تأثير كبير في نقل إحساس الحزن، وخاصةً للونان الأسود والأزرق، وأيضاً تلك العناصر الطبيعية التي تكون ملونةً بهذه الألوان. كان بيت الماغوط أيام الطفولة أصفر بلون الفقر والبؤس، البيت الذي كان يموت فيه المساء وينام على أنين القطارات البعيدة:

كان بيتنا غاية في الاصرار/ يموت في المساء/ ينام على أنين القطارات البعيدة/

وفي وسطه/ تنوح أشجار الرمان المظلمة العارية/ تتكسر ولا تنتج أزهاراً في الربيع/

حتى العصافير الحنونة/ لا تفرد على شبابيكنا/ ولا تقفز في باحة الدار (الماغوط،

١٩٨١، ص٦٦)

اختار الماغوط في هذه القصيدة، المفردات التي لها في الحقيقة، الصورة التي تخلق اليأس، قصداً لنقل إحساسه باليأس وخيبة الأمل. «الأصفر»، «الليل»، «أنين القطارات»، «الأشجار المظلمة العارية»، «النوحة»، «تكسر الأشجار وعدم إنتاج الأزهار»، هذه المفردات تكون أبرز الكلمات التي تُستخدم في هذه القصيدة وتعطي للقصيدة صورةً حزينةً. توجي كل واحدة من هذه الكلمات بالحزن واليأس.

الخاتمة

١. يعدّ محمد الماغوط، الشاعر الشهير السوري من رواد قصيدة النثر وكبارها في الشعر العربي المعاصر الذي يُطلق عليه اسم «أبي الحزن» بسبب سيطرة ظاهرة الحزن والأسى الواسعة على أشعاره.
٢. هناك عوامل شخصية واجتماعية، تسبّب في الحزن والشجن في أشعار الماغوط مثل: السجن والأسر، الوحدة، الفقر والحرمان في الطفولة، والأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة والفوضوية في العالم العربي وخاصة في وطن الماغوط.
٣. يكون الحزن الموجود في أشعار الماغوط ذا مظاهر مختلفة، منها: اليأس وخيبة الأمل، الحسرة، الحنين إلى الماضي، الغضب والكراهية، والخوف و....
٤. الملفت في شعر الماغوط، هو موقفه من عالم الكبار وأيضاً عالم طفولته. فمن جهة هو يعاني من العبثية وعدم أصالة أيام كبره، ومن جهة أخرى، تذكر الفقر والحرمان في أيام طفولته مؤلماً له، لكن الذي يرجعه إلى الماضي، هو ذكريات ألعاب الطفولة والشعور بالانتماء إلى أمه.
٥. إن الخصائص العاطفية لشعر الشاعر مثل الحزن واليأس والشكوى، جنباً إلى خلق الصور الفنية، تجعل الماغوط في جملة الشعراء الرومانسيين.
٦. لا يهدف الماغوط إلى اللعب بالكلمات، بل إنما هدفه هو أن ينقل إحساس حزنه إلى المخاطب؛ الإحساس الذي له جذور في أعماق نفسه والماغوط يمارس في نقل هذا الإحساس ممارسة فنية جداً.
٧. لقد رافق الماغوط مضامينه المحزنة، بالصور البديعة والفنية، باستخدام مظاهر الطبيعة وعناصرها (الليل، الغيوم، المطر، الريح وغيرها)، وأيضاً باستخدام بعض المفردات والألوان القاتمة والخاصة التي تتلاءم مع إحساسه وحزنه الداخلي. لهذه الصور دور هام وكبير في نقل إحساس الشاعر إلى المخاطب ومرافقته معه.
٨. إن اختيار الكلمات والألوان الخاصة وخلق صور فريدة ومثيرة لإحساس الحزن، يدخل المخاطب أكثر فأكثر في فضاء يدرك إحساس الشاعر.
٩. إن أشعار الماغوط أكثر شبه بلوحة ملونة مليئة بالصور الخلابة المذهلة. قدرة الشاعر في خلق الصور ونقل المفاهيم والمعاني عن طريق الصور جديرة بالإعجاب.
١٠. رغم أن الشاعر مشتغل بحزن داخلي مع أبعاده المختلفة، لكنه استطاع أن يخلق مضامين بديعة وفنية على أساس هذا الإحساس.

المصادر والمراجع

١. أبو شهاب، واصف (١٩٨٨م). القديم والجديد في الشعر العربي الحديث. بيروت: دار النهضة العربية.
 ٢. بزون، أحمد (١٩٩٦م)، قصيدة النثر العربية. بيروت: دار الفكر الجديد.
 ٣. حسن جواد، ناهض (فائز العراقي) (٢٠٠٨م). القصيدة الحرة: محمد الماغوط نموذجاً. حلب: مركز الإنماء الحضاري.
 ٤. خورشيا، صادق (١٣٨١هـ.ش). مجاني الشعر العربي الحديث ومدارسه. طهران: سمت.
 ٥. صويلح، خليل (٢٠٠٢م). اغتصاب كان وأخواتها. بيروت: دار البلد.
 ٦. قاسم، عدنان (١٩٨٠م). الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر. ليبيا: المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان.
 ٧. القيم، علي (٢٠٠٦م). محمد الماغوط: العاشق المتمرد. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
 ٨. كامبل، روبرت (١٩٩٦م). أعلام الأدب العربي المعاصر. بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع.
 ٩. لؤي، آدم (٢٠٠٢م). وطن في وطن. دمشق: دار المدى.
 ١٠. الماغوط، محمد (دون تا). المختارات. نسخة الكترونية.
 ١١. الماغوط، محمد (١٩٨١م). الآثار الكاملة. ط ٢، بيروت: دار العودة.
 ١٢. الماغوط، محمد (٢٠٠٦م). البدوي الأحمر. دمشق: دار المدى.
 ١٣. الماغوط، محمد (١٣٧٣هـ.ش). شادي حرفه من نيست. ترجمة موسى بيدج، قم: مؤسسة محراب اندیشه الثقافية.
 ١٤. مندور، محمد (٢٠٠٦م). الأدب ومذاهبه. ط ٦، القاهرة: نهضة مصر.
 ١٥. الورقي، سعيد (١٩٨٤م). لغة الشعر العربي الحديث. ط ٣، بيروت: دار النهضة العربية.
- المصدر الإلكتروني:
١٦. حوارات مع الماغوط، صحافة الشرق، ١٣٨٥، www.jehat.com